

كيف نُؤثر الأَدنى على الأَعلى؟!

الشيخ/ عبد الكريم الخضير

هُؤلاءِ الذِّينِ آثَرُوا الدُّنْيا على الآخِرَةِ، ولا شكَّ أَنَّ الدُّنْيا صَرَّةٌ، صَرَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلاخِرَةِ، وَالإِيعَالُ فِيها مُؤَثِّرٌ فِيما يُقَرِّبُ إلى الله - جَلَّ وَعَلا- فَإِنَّ آثَرَ دُنْياهُ أَصَرَ بِآخِرَتِهِ، وَإِنْ آثَرَ آخِرَتُهُ لا شكَّ أَنَّهُ يَتَصَرَّرُ فِي دُنْياهُ؛ لَكِنْ قَدْ يُوفِّقُ لِعَمَلٍ لا يَحْتَاجُ مِنْهُ إلى جُهدٍ، إِذا التَّقَتَّ إلى آخِرَتِهِ، وَالْمُتاجِرَةُ مَعَ رَبِّهِ، وَمَنْ يُؤَثِّرُ هَذِهِ الدُّنْيا وَيَكسِبُ فِيها مِنَ الحُطامِ ما يَكسِبُ، وَالْيَوْمَ يَكسِبُ وَغداً يَخسِرُ، وَإِذا كَسَبَ كَسَبَ عَشْرَةَ بِالمائَةِ عَشْرِينَ بِالمائَةِ، وَهُوَ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ الحَسَنَةِ بَعِشْرَ أَمثالِها، أَلْفَ بِالمائَةِ، مَنْ يَتَخَيَّلُ هَذا؟! يَعاينُ في أُسبوعٍ وَهُوَ مُرتاحٌ بَعدَ صَلاةِ الصُّبْحِ إلى أَنَّ تَنَتَّشِرَ الشَّمسُ يَقرأُ القُرْآنَ، وَيَحصلُ على ثَلاثَةِ مَلايينِ حَسَنَةٍ، على أَقلِّ تَقْدِيرٍ، إلى أَضْعافٍ كَثيرَةٍ، وَذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشاءَ، وَمِثْلُ هَذا العَمَلِ لا يَعوِّفُهُ عَن شَيءٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وَلا دُنْياهُ، فَإِذا انْتَشَرَتِ الشَّمسُ صَلَّى ما كُتِبَ لَه رَكَعَتينِ أَوْ أربَعٍ أَوْ سِتٍّ أَوْ ثَمانٍ، يَرجِعُ بِوافرٍ الأَجْرَ والثَّوابَ مِنَ اللهِ -جَلَّ وَعَلا- أَمَّا مَنْ انصَرَفُوا إلى أُمُورِ الدُّنْيا، وَهَذا لُوحظَ وَظَهَرَ أَنَّهُ على أَبدانِ النَّاسِ وَعُقُولِهِم، فَضلاً على أَديانِهِم، أَمَّا تَأثيرُهُ على الأَديانِ مَرَّ بنا وَبَغَيرِنا أَيضاً مِنْ طُلابِ العِلْمِ مِمَّنْ كانَ يُلازمُ الدُّروسَ وَأُمُورَهُ بِالنِّسْبَةِ لِلدُّنْيا مَاشِيَةً ما عِنْدَهُ مُشكِلةً، ثُمَّ بَعدَ ذلكَ انقَطَعَ بِالكُلِّيَّةِ عَن التَّعَلُّمِ، وَلازَمَ العُلَماءُ عَشْرَاتِ السِّنِّينِ، ثُمَّ بَعدَ ذلكَ في سَنةٍ أَوْ سَنتينِ رَجَعَ شِبْهُ العَامِّيِّ، يا أُخي أَنتَ حَفِظْتَ القُرْآنَ، وَتَعَبْتَ عَلَيْهِ، وَفِي سَنتينِ أَوْ ثَلاثِ تَنسى القُرْآنَ؟! أَيُّ كَارِثَةٍ مِثْلُ هَذِهِ الكَارِثَةِ؟! وَلو سَيقَتْ لَكَ الدُّنْيا بِحَدافيرِها، وَالدُّنْيا إِذا عَلِمنا حَقيقَةَ هَذِهِ الدُّنْيا، وَأَنَّها مَلْعونَةٌ، مَلْعونٌ ما فِيها إِلا نِكرُ اللهِ وَما وَالاهُ، وَعَرَفنا أَنَّ الدُّنْيا لا تَترنُّ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعوضَةٍ، فَكيفِ نُؤثِّرُ الأَدنى على الأَعلى؟! يَعرِفُ حَقيقَةَ الدُّنْيا مِثْلَ سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، لَمَّا ابنُ الخَليفَةِ يَخُطِبُ ابنتَهُ، وَالوَسِيطُ يَقولُ لَه: جَاءَتِكَ الدُّنْيا بِحَدافيرِها، هَذا وَلدِ الخَليفَةَ يَخُطِبُ بِنَتِكَ، جَاءَتِكَ الدُّنْيا بِحَدافيرِها، سَعيدُ بنِ المُسَيَّبِ مِنَ العُلَماءِ الرَّاسِخينِ، هُوَ أَفْضَلُ التَّابِيعينَ عِنْدَ الإِمامِ أَحْمَدَ، وَإِنْ كانَ القَوْلُ المُرَجَّحُ أَنَّ أَفْضَلَ التَّابِيعينَ أُويسُ بالنَّصِّ الصَّحيحِ، أَمَّا مِنْ جَهةِ العِلْمِ فَلا شكَّ أَنَّ سَعيدَ أَعلَمَ مِنْ أُويسَ؛ لَكِنْ يَبقى أَنَّهُ أَفْضَلُ التَّابِيعينَ عِنْدَ الإِمامِ أَحْمَدَ، وَلَهُ وَجْهٌ نَقْضيلُهُ، وَإِنْ كانَ الحَدِيثُ الصَّحيحُ يُرَجَّحُ أُويساً القَرْنِيَّ، لَمَّا قِيلَ لَه: جَاءَتِكَ الدُّنْيا بِحَدافيرِها، ماذا كانَ الرَّدُّ؟ الرَّدُّ قالَ: إِذا كَانتِ الدُّنْيا لا تَترنُّ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعوضَةٍ، فماذا تَرى يَقبُصُ لي مِنْ هَذا الجَناحِ؟! الخَليفَةُ بِرأسِهِ كيفِ يَقبِصُ لي مِنْ هَذا الجَناحِ؟! وَمَعَ ذلكَ يُرَوِّجُ هَذِهِ البِنْتُ المَرأةَ الصَّالِحَةَ، العابِدةَ العالِمةَ، يُرَوِّجُها أَفقرَ وَاحِدٍ مِنْ طُلابِهِ، مَنْ لا يَجدُ المَهرَ، وَيَجْهَرُها لَه، وَيَرْفُها إِلَيهِ، وَهُوَ فِي بَيتِهِ، هَذا الَّذي يَعرِفُ حَقيقَةَ الدُّنْيا، أَمَّا إِذا لَاحَتْ لَنا الدُّنْيا لَوَحَتْ لَنا بِجَناحِ مُظَلِّمٍ نَتَبَّعُها وَنَتُرَكُّ الآخِرَةَ؟! بَعضُ طُلابِ العِلْمِ نَسُوا القُرْآنَ، مِنْهُمُ مَنْ صَلَّى صَلاةَ الظُّهرِ وَجَهِرَ بِالقِراءَةِ وَأَمَّنُوا خَلْفَهُ هَذِهِ حَياةَ ذِي؟! نَسألُ اللهُ السَّلامَةَ وَالعافِيَةَ؛ فَالأَمْرُ خَظيرٌ، يَعاينُ هَذا بِالنِّسْبَةِ لِلاأَثَرِ على الذِّينِ.

الأَثَرُ على الدُّنْيا قُطِعَتْ الأَرْحامُ، تُرِكَ الأَباءُ والأُمَّهاتُ ما يُزارُونَ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الأَسْهُمِ، حَصلَ الخَلَلُ فِي العُقُولِ، ماتَ بَعضُ النَّاسِ، جَلَّطاتُ، مِنْهُمُ مَنْ جُنَّ، هَذِهِ أُمُورٌ حَقيقَةٌ تُعْطِي دُروسَ؛ وَلَكِنْ مَعَ الأَسْفِ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا، لَوْ ارْتَقَعَتْ هَذِهِ الأَسْهُمُ رَجَعُوا ثابِتَةً، وَليسَ بِأعْجَبَ مِمَّنْ لَوْ أُدْخِلُوا النَّارَ وَخَرَجُوا مِنْها وَرَدُّوا لَعادُوا

كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - وَالْأَقْبَلِ سَنَتَيْنِ تَعْرِفُونَ الْكَارِثَةَ الَّتِي حَصَلَتْ، كَارِثَةٌ يَعْنِي أُدْخِلِ الْمُسْتَشْفِيَّاتِ بِسَبَبِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ، صَارَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْتَشْفِيَّاتِ لَا تَقْبَلُ لِكثْرَةِ مَنْ أُصِيبُوا قَبْلَ سَنَتَيْنِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَادُوا، وَهَذِهِ الْكَارِثَةُ أَكْثَرُ مِنْهَا وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَقْتَصِدَ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ، وَيُكْفِيهِ مِنْهَا الْبُلْغَةَ، وَلَا يَعْنِي أَنَّهُ يَعِيشُ يَتَكَفَّفُ النَّاسُ يَسْأَلُ النَّاسَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ - لا - ، اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - يَقُولُ: **{وَلَا تَنَسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}** [الفصص / 77]؛ لَكِنْ لَا تَعَكِسُ الْمَسْأَلَةُ، تَسْتَعْرِقُ فِي أُمُورِ دُنْيَاكَ، ثُمَّ يُقَالُ لَكَ: لَا تَنَسَ نَصِيبَكَ مِنَ الْآخِرَةِ! فَالْتَّوَازُنَ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.